التاريخ

ليس لعبة ولا مهارة "شطار"!

-١-

في كتاب (قصة الحضارة) يقول ول ديورانت في ثنايا مقدمته: (إن أغلب التاريخ ظن، والباقي من إملاء الهوى) والظن والهوى يتلاقيان عموماً وينسكبان في عمل من يكتبون التاريخ كي يشكلا شبكة جديدة من خيوط قديمة لكنها شبكة تحمل مصالح من ينتمي إليهم أولئك الذين يكتبون التاريخ. فكل كتابة للتاريخ هي إعادة إنتاج له، ومن ينتج شيئاً ينتجه- حسب مقتضيات عمل السوق- ليربح منه. وليس الأفراد الذين يعملون في حقل كتابة التاريخ أو بالأحرى: في حقل إعادة إنتاجه في عصرنا-أياً تكن ألقابهم العلمية ومؤهلاتهم- أكثر من (عاملين) داخل (نظام معرفي عام) يشبه (الشركات الضخمة أو الكونسرسيومات) من حيث غموض نُظُم أدائه وكيفيات سريانها، ومن حيث جبروت القواعد الخفية المشكلة للمناخ العام الذي يتأطر عمل العاملين في إطاره، حسب الغايات الأساسية التي من أجلها- وبفعلها- وُلِدَ الكونسرسيوم.

وهذا التشبيه تبسيطي جداً ليوضح بعض جوانب عمل العاملين في حقل التاريخ ومشتقاته داخل نظام التمركز الأوروبي- أو المركزية الأوروبية- في الثقافة. ولقد بيّن الراحل

العلامة أرنولد توينبي في مقدمة كتابه الأخير الموجز بتكثيف دقيق: (تاريخ البشرية) كيف ظل الغرب- ونعني هنا "بالغرب" مدلولات اصطلاحية محددة لا جهة جغرافية!! -أي أوروبا واستطالاتها الاستيطانية التي منها أميريكا وأستراليا والكيان الصهيوني ذو الأصول الأثنية الخزرية... وغيرها، كيف ظل يستبعد من التاريخ كل ما ليس أوروبياً من تواريخ الحضارات غير الغربية، فلا يدخل أصحاب تلك الحضارات في التاريخ إلاّ (بأوْرَبتهم) أي بإعادة إنتاج صور تاريخهم ووجودهم على مقاس (المركزية الأوروبية) التي تلخص الغطاء الأيديولوجي للهيمنة الاستعمارية الرأسمالية فالإمبريالية بمختلف مراحلها وتسمياتها.

إن توينبي نفسه لم يستطع الإفلات من الشراك غير المنظورة للتمركز الأوروبي رغم إدانته له- وهذه قضية أخرى- فكيف يمكن ذلك لسواه من الأقل موهبة وعلماً وذكاء ومقدرة وحسن نية ونبل مواقف؟.

ولن نشير إلى سواه من عباقرة الغرب الذين لم يستطيعوا الإفلات كلياً من المناخ المعرفي الأوروبي العام ونزوعه التمركزي ذي الغايات المعروفة، حتى أشدهم عداء للنظام الرأسمالي وقيمه وفعالياته ووظائف علومه.

-٢-

إعادة إنتاج صورة غير الأوروبيين من شعوب الأرض، منذ ابتداء هيمنتها بعد استشراء نهضتها، هي إعادة إنتاج تقوم على (نفي الآخر) موضوع الهيمنة. وفي مقدمة تلك الشعوب- وبناء على مواريث تاريخية سابقة- كان العرب المسلمون على رأس القائمة الإلغائية: منذ الحروب الصليبية وأصدائها (النهضوية)

حتى برنامج السيد هنتنغتون في (صراع الحضارات). وربما يمكن إرجاع البداية الأولى إلى غزوات (شعوب البحر) في نهايات القرن الثالث عشر قبل الميلاد لكل من سورية ومصر: عبر آسيا الصغرى حيث دُمِّرت مملكة الحثيين نهائياً كما دمَّرت مدن الكنعانيين في الساحل السوريّ، وعبر البحر عن طريق شرقي ليبيا ودلتا النيل حتى صدهم أولاً "أمُنْفتاح" المصري ثم صفاهم، دون إبادة، رعمسيس الثالث، أو "رع-مس" فاستعبد بقاياهم وقتاً قصيراً ثم حررهم فأسكن (الشعب الفلسطيّ) في غزة ومدنها الخمس، وحرر "الدانيين والشردانيين والسيكر.. الخ" وسمح لهم بالإقامة حيث أرادوا من أمبراطوريته التي كانت كثير من بقاع سورية تدخل ضمنها. ولنلاحظ هنا أمرين:

١- تشابه أسماء قبائل (شعوب البحر) مع عدد مما يسمى (أسباط بني إسرائيل). وذلك كله، على ذمة مؤرخي الغرب، مُثْبَتٌ في يوميات "رع-مس" بدقة على مدى سبعين عاماً.

٢- مدى حضور ارتكاسات التاريخ في الواقع، حيث الصهاينة- تأسيساً على اختراع أسلافهم علماء طبريا المصوريتيين- ينشؤون جهازهم المفاهيمي بالاستناد على التمركز الأوروبي المتهود معرفياً، والمتشارك رأسمالياً مع (شايلوكييهم). وهو جهاز مفاهيمي إجرائي استعمر واستوطن الصهاينة بموجبه قسماً من أرضنا العربية (فلسطين) تأسيساً على ما سمي (العهد القديم) أي (الوعد الربي) للحلف اليهودي من بقايا شعوب البحر وأمثالهم بقيادة (أبهرام)- صار إبراهيم لاحقاً- بإعطائهم (صك ملكية) أسطوري بأرضنا العربية من الفرات إلى النيل..

لكن الأسطورة تحولت إلى أمر واقع بقوة الفعل الرأسمالي ذي الغطاء الأيديولوجي المتمثل في المركزية الأوروبية.. ذلك هو (العهد القديم) الذي قام على مفاهيم عنصرية شوفينية وعلى إجراءات إبادية- حدثت حقيقة أم حلم بها الكتبة من الحاخامين بعد عصور طويلة- مما لم تعرفه منطقتنا العربية، ولم تقره أخلاقها في أي يوم، أو تحت أي ظرف.

ومشكلتنا مع هذا الشكل من (التأريخ) ليست مشكلة رفض له وإدانة وحسب، بل هي أيضاً مشكلة تتلخص في سؤال كالتالي:

-كيف نعيد إنتاج تاريخنا بما يكفل بقاءنا خارج الهيمنة والاستلاب، عبر تحديد هويتنا ومقدراتنا على الإبداع الحضاري، بالاستناد إلى نظامنا القيمي الإنساني الذي تشكَّلَ حدْسياً في بدء إنشائنا للتحضّر البشري العام، ثم تم تجديده وإبرازه كنظام ضابط للسلوك الإنساني الرفيع مع ظهور الإسلام؟

-٣-

يبدو الأمر -ببساطة- أنه مسؤولية إنقاذ الحضارة على أيدينا- رغم كل مظاهر التردي البالغ في واقعنا- وأيدي الشعوب ذات الحضارات العريقة ممن تشاركنا نظامنا القيمي الإنساني الضابط للسلوك البشري على أسس العدل والمساواة، وتحقيق التسامي في شخصيات المخلوقات البشرية، كي يصل الوجود الإنساني إلى التوحد الراقي النبيل من خلال تفاعلات التنوع الثقافي الكبير في إطار تلك الوحدة المنشودة، لا من خلال (التنميط العولمي) الذي تحاول فرضه قوة التكنولوجيا الغربية الإمبريالية المتصهينة بواسطة (علم) يفتقر إلى الروح وإلى أية

قيم غير (قيم السوق) الوحشية اللاإنسانية.. وكل ذلك ليس إلا محصلة للتمركز الأوروبي الثقافي الذي اعتمد أساساً له: (معجزة) نظام الرق اليوناني فالروماني و(معجزةَ) عنصريةِ (العهد القديم) وشوفينيته و(تحريمه) اللاإنساني، واستباحته الفكرية، ثم العملية، لثروات الآخرين ودمائهم وإعراضهم... حسب النص التلمودي الذي يعتبر أن غير اليهود (أي الغوييم) هم (كالبقر والحمير والكلاب أيضاً).

وهكذا نسي الغرب العهد الجديد: عهد إنقاذ الله للإنسان عبر افتدائه بالمسيح، كلمته وروحه! فهل من معتبر؟!.

❑❑